

من قصص الصالحين

قال الفضل بن الربيع : كنت بمنزلي ذات يوم ، وقد خلعت ثيابي ، وتهايت لمنامي ، فاذا بقرع شديد على بابي ، فقلت في قلق من هذا ؟

فقال الطارق : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا أتعر في خطوي ، فاذا بالرشيد ، قائما على بابي ، وفي وجهه تجهم حزين ، وهم دفين ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت الى أبتك .

فقال : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء أطار النوم من عيني ، وأزعج وجداني ، شيء لا يذهب به الا عالم تقى من زهادك ، فانظر لي رجلا منهم أسأله .

فقلت : ها هنا سفيان بن عيينه ، فقال : امض بنا اليه ، فأتيناه فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت الى أبتك ، فقال : جد لنا ما جئنا اليك بشأته ، فحادته ساعة ، ثم قال له : عليك دين ؟ فقال : نعم ، فقال : يا عباس اقض دينه ، ثم انصرفنا ، فقال : ما أغنى عنى صاحبك شيئا ، فانظر لي رجلا أسأله ، فقلت : ها هنا الفضيل بن عياض .

فقال امض بنا اليه فأتيناه ، واذا هو قائم يصلي في غرفته وهو يقرأ قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » .

فقال الرشيد : ان اتفقنا بشيء فبهذا ، فقرعت الباب فقال : من هذا ، فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : مالي ولا أمير المؤمنين ، فقلت : سبحان الله أما عليك طاعته ؟ فقال : أو ليس قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » فترل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبق كف الرشيد كفى اليه ، فقال : أواد من كف ما ألتينا ان

سجت من عذاب الله تعالى ، قال : فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي ،
من قلب نقي .

فقال : الرشيد ، خذ فيما جئتك له يرحمك الله ، قال : وفيما جئت ، وقد
حملت على نفسك ذنوب الرعية التي سميتها هوانا ، وجميع من معك من
بطانتك وولاتك تضاف ذنوبهم الى ذنوبك يوم الحساب ، فبك بغوا ، وبك
جاروا ، وهم مع هذا أبيض الناس لك وأسرعهم فرارا منك يوم الحساب
حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك جزءا من
ذنب ما فعلوه ، ولكن أشدهم حبا لك ، أشدهم هربا منك ، ثم قال :

ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن
كعب القرظي ورجاء بن حبوة ، فقال لهم : اني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا
علي ، فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة ، فقال له سالم بن
عبد الله ، ان أردت النجاة غدا من عذاب الله ، فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك
فيها الموت .

وقال له محمد بن كعب : ان أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير
المسلمين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم عندك ابنا ، فوقر أباك ،
وأكرم أخاك ، وتحنن على ولدك .

وقال له رجاء بن حبوة ، ان أردت النجاة غدا من عذاب الله ، فأحب
للمسلمين ما تحبه لنفسك ، وأكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت اذا شئت
واني أقول لك يا هارون : اني أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه
الأقدام ، فهل معك يرحمك الله من يشير عليك بمثل هذا ، فكبي هارون
بكاء شديدا حتى غشي عليه .

قال الفضل ، فقلت : أرفق بأمر المؤمنين ! فقال : تقتله أنت وأصحابك
وأرفق به أنا ؟

ثم أفاق هارون . فقال : زدنا رحمك الله . فقال له : يا أمير المؤمنين بلغني
أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكك اليه ، فكتب اليه : يا أخي أذكرك بسهر
أهل النار في النار ، مع مخلود الأبد وأياك أن ينصرف بك من عند الله عز

وجل فيكون آخر العهد بك انقطاع الرجاء ، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك لا أعود الى ولاية حتى ألقى الله عز وجل .

قال : فيكى هارون بكاء شديدا ، ثم قال له : زدني يرحمك الله ، فقال : يا أمير المؤمنين ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، جاء الى النبي فقال : يا رسول الله ، أمرني على اماراة ، فقال له : يا عم ، ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فان استطعت أن لا تكون أميراً فافعل .

فيكى هارون بكاء شديدا ، وقال له : زدني يرحمك الله ، فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فان استطعت أن تقى هذا الوجه فافعل ، وإياك أن تصبح أو تسمى وفي قلبك عش لأحد من رعيتك ، فان النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أصبح لهم غاشا لم يشم رائحة الجنة » .

فيكى هارون بكاء شديدا ، ثم قال : هل عليك دين ؟ فقال : نعم ، دين لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي ان سألتني ، والويل لي ان ناقشني ، والويل لي ان ألهم حاجتي .

قال الرشيد : انما أعنى دين العباد ، قال الفضيل : ان ربي لم يأمرني بهذا ، وقد قال الله عز وجل : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

فقال له الرشيد : هذه أئف دينار خذها وأنفقها على عيالك ، وتقفو بها على عبادتك ، فقال : سبحان الله ! أنا أدلك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك ، ثم صمت فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فقال هارون : اذا دللتني على رجل ، فدلتني على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين اليوم .

ثم ان امرأة الفضل دخلت عليه وقد سمعت الحوار بينه وبين الرشيد فقالت ، يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال ففرجنا به ما نحن فيه ؟!

فقال : انما مثلى ومثلكم كمثل قوم كان لهم بغير يأكلون من كسبه فلما كبر نخروه وأكلوا لحمه ، موتوا يا أهلى جوعا ، ولا تذبحوا فضيلا .

فلما سمع الرشيد ذلك ، قال : أدخل فعسى أن يقبلوا المال ، قال : فدخلنا ، فلم علم بنا الفضيل خرج وجلس على التراب على السطح ، فجاء هارون الرشيد فجلس الى جانبه ، فجعل يكلمه فلا يجيبه .

فبينما نحن كذلك اذ خرجت جارية سوداء ، فقالت : يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة ، فانصرف يرحمك الله ، فانصرفنا .

عباد الله

أوحى الله الى موسى عليه السلام

يا موسى ان لى عبادا يحبونى وأحبهم وأن ناجونى أصغيت اليهم وان نادونى أقبلت عليهم ، وان أقبلوا على أدنيتهم . وان دنوا منى قربتهم وان ولونى واليتهم ، لم أجعل لقلوبهم راحة فى شىء الا فى ذكرى ، فذكرى لا سقامهم شفاء ، وعلى قلوبهم ضياء ، لا يستأنسون الا بى ، ولا يحطون رحال قلوبهم الا عندى .